ضباب ورماد

قصة رمزية

بقلم : عادل كامل المحامي

لم يكن في الليل نجمٌ واحد وطلع النهار بغير شمس

هكذا احتجبت شخوص مسرح الطبيعة وراء الستار . وقيل للبشر المتفرج أن ازووا في جحوركم فليس الليلة تمثيل ولن يكون عرضٌ في الصباح . ويسألون عن الخبر فتهمس أعلام الطبيعة الصغرى من شجر وأنهار :

— لقد اعتكفت أمهاتنا الكبرى في أبراجها العلوية

ويردد البشر الواجف :

— ما الخبر ؟

فتبتسم الورود الثرثارة ثم تميل على أعوادها متمتمة :

— إنهنَّ يتدارسنَ أمراً خطيراً

شاعت في وجه البسيطة نُذُر الأمر الخطير . ونبض الجوُّ بالهمس والصوت المكتوم . فتملك الآدميين فزعٌ غامض انطوى عليه لاشعورهم ثم تسرَّب الى أفئدتهم في صورة إحساس ملهوف : إحساس ترقب شيء يخشونهُ ولا يدرونهُ ولكنهم يريدونهُ

لازمهم هذا الشعور وهم يتمون زينتهم أمام المرايا . وظلَّ في حاشية وعيهم وهم يشربون قهوتهم الساخنة . ثم رافقهم وهم يسعون وراء ما يوصلهم الى عمال أعمالهم . وكانوا لا يزالون يدركونهُ وهم يقرأون صحفهم . ثم رجعوا به إذ آووا الى بيوتهم يأكلون ويحدثونه .

أما هو فلم يغادر حجرته مع قوافل الآل الآدمي ل بقي قابعاً الى جوا نافذة مرقت طلائع هذا الصباح الرمادي . وكان في يده كوب من الشاي أخذ يرتشف منه ب بطء وأذنهُ الساخنة على زجاج النافذة فيكتسي أديمهُ بضباب ضفي . وكأنما خالجتهُ فكرة تطرق مبتسماً إن نهار هذا اليوم يراه الخلق من خلال زجاج ناصع بالضباب ولكنهُ ما يلبث أن يتقشع فيبين . أما هو فان نافذة حياته ليس فيها بطل واحد صافي الأديم

الضباب . . . هذه حياته وهذا عنصره . وان كان لقدره لون ما فهو لون الرماد . الرماد يوم وُلد والرماد الى أن يموت . ان الناس يتألقون جمراً ثم يستحيلون تراباً ، أما هو فيعيش في الموت حيث وُلد . انهُ دودة آدمية لا يحوي جسمها دماً بل قيحاً

قيحاً ... يا للبشاعة ! لشدَّ ما تمنى لو حوت عروقهُ دماً حاراً قانياً ! لشدَّ ما اشتهى دفء الحياة يسري في أوصاله فيحرّك مستنقع نفسهِ الراكد ! لشدّ ما زعق وصاح في خلوته!

— انني مضطهد مظلوم . لِمَ حقت عليَّ لعنة الضباب والرماد بينما ينعم غيري بسورة الخمر والدم . . .

الضباب والرماد . . .

اما من فرار من ربقة هذين الشيطانين الغليظين ! انه لا يطلب من جلاديه سوى ساعة واحدة يعيشها كبقية الخلق ، يعيشها بقلبهِ وامعائهِ ودمهِ . يعيشها كما يعيش النبت إذ يمتصُّ حياتهُ من الأرض أمه . يعيشها بجذور كيانه الممتدة في جوف الكون . وبعد ذلك لن يضجره إن مات في الرماد أو عاش فيه

لحظة من جمر ودم . . .

***

تصرّمت ساعات قصيرة من النهار وهو لا يزال على هجوعه يحلم ويرقب . وكان الصباح يزداد دكنة حتى خشي البشر أن تكون الشمس قد أصابها ضرٌّ فتلك بها إذ كيف ترضى بهذه العتمة تغزو صباحها وهي شمس ! وكيف تهادن البرودة فتتركها تجمد الأطراف وتميت النبت وهي شمس ! وكيف تحتمل رؤية طرقات المدينة مقفرة موحشة كسراب القفار وهي شمس !

ليس هذا صنيعهم ولا تلك شيمهم . وأحسَّ الناس أن دنيا هذا اليوم غريبة عليهم أجنبية عن ادراكهم حتى صوَّر لهم أنهم يعيشون في كوكب آخر غير الأرض — المريخ أو زحل . فكان أن خافوا واكتئبوا

أما هو فقد فهقه في سروره إذ أدرك لتوّه أن اليوم يومهُ والصباح صباحه . انها فرصة العمر قد أتيحت له ليحيا في عنصره فهاهو ذا الضباب قد تكاثف ليلتفّ منه بردة ملك وها هي ذي الدنيا الغريبة على البشر قد جاءت تبسط صدرها لرهيب الشياطين . لعل الرحمة قد أمرت باستجاب جلاديه الدعاء

نزل « ابليس الصغير » الى الطريق يضرب في جنباتهِ الخاوية وقلبه يحدّثهُ بأن العالم اليوم ملكهُ وحده . وكأنما هو زعيم سياسي غداة استيلائه على مقاليد الحكم فأصبح وحده الآمر الناهي بين رجالهِ وأعوانه . وفرح بهذا الخاطر وانبسط فراح يحدّث نفسهُ حديثاً عجباً

— هكذا أنا . اني أشرف الناس جميعاً لأني أقذعهم سخرية . أنا أكثرهم احتراماً لأني صعلوك . صعلوك بين الملوك . ملوك صعاليك وصعاليك ملوك . ليس لي دم أزرق ... ها ... ولا أحمر . ان دمي أبيض . انهُ القبيح الملقح ضدَّ كل شعور واحساس . انهُ دم الآلهة المنزهين عن الغضب والفرح والحب والحزن . ان كل ما ليس آدمي إلـه ... أو شيطان . فليكن دمي من رحيق الأبالسة فلست عبثاً ما دمت لا أمتُّ الى البشر بصلة

لشدَّ ما أمقت آدم وأبناء آدم وحواء وبناتها . ولم تكن سعادتي لتكمل لولا انهم يمقتونني كما أمقتهم . ولكن من منا بادأ الآخر بالكره ؟ لو انهم ابتدروني ببغضهم فأنا شخص ممقوت يصدُّ السهام بأخرى من نوعها . بينما لا أستحق تواباً على كرهي لهم ان لم أكن أمقتهم في حين اني محبوب . محبوب ممن ... منهم ؟ من نفسي ؟ من الآلهة أم من الشياطين ؟ هـذا لا يهم . يكفي أن أكون شخصية محبوبة في ذاتها . ولكن هذا هراء . فأنا شخصية بغيضة لا جدال في ذلك وعليَّ أن أبني سعادتي على هذا الأساس . وإلاَّ فأنا ملعون من نفسي بقدر لعنتي منهم

بودلير . . . هذا الشيطان اللعون المحبوب . ولكن ما لي ولهُ . انني لا أنهج نهج أحد في الوجود وإلاَّ أصبحتُ بشراً كبعض أحزاب البشر

فاوست . . . انه معتوه . لقد رغب عامداً في الشيطنة وما هو بشيطان . دفع الثمن من دمهِ وأثبت المعاملة في صك كأنما يعقد صفقة في سوق مع ان الشيطنة هبة وموهبة . ولذا فما كاد الأجل أن ينصرم ويشرف المسكين على أبواب الأبد حتى تراه يعول وينتحب كالنساء . وكلام كثير عن تأنيب الضمير والتوبة والندم . يا للعار . . . كان عليه أن يفخر بنهايته كأي قديس استشهد في سبيل الله . فالحق انهُ يجب أن يكون الأبالسة قديسين كما الانبياء

عيب البشر أنهم لا يثبتون على حال فتأتيهم الرهبة في أعقاب الرغبة ويجري الندم في ذيول سعادتهم . أين هو الرجل الذي لم يصادفه كورم خوفو ؟ ولكنهم أمواج رقيقة مذعورة يقطعها عود من العشب . هؤلاء البشر . . .

هذا وغيره وكثير سواه

ما كان أتعسني منذ لحظة حين تمنيت ساعة من جور ودم . الرجل الصمل هو العنيد كالحمار ؟ الغبيُّ كالبغل . هو الذي لا ينمي غير نفسه . لهذا قدَّس جدودي الثور وعبدوه

هذا وغيره وكثير سواه

ولكن هل أنا حقاً كما أصوّر نفسي لنفسي أم أكون في الواقع شخصية أخرى مخالفة ؟ هل من أجالسهم وأحادثهم يدركون فيَّ هذه الصورة أم تراهم يقولون « يا لهُ من فتى طيب

خجول ! » ... وحق نفسي لأقطعنَّ ألسنتهم ولأدقنَّ رؤوسهم بالارض

ومع ذلك أفإن كنت غير نفسي وقابلت نفسي حول مائدة شراب فهل كنت أقول عنها مثل ما يقولون ؟ هل يفرض عليَّ الناس شخصية اجتماعية أواجههم بها ويكرون عليَّ أن أظهر بينهم بشخصيتي الفردية دكتور جيكل ومستر هايد . .

لا كان الناس ولا كانت آراؤهم النفسة . انهم إن قالوا عني هذا القول فانما يقولونهُ ليستروا خوفهم مني ورهبتهم اياي وهذا جهد ضائع . فما أنا معنيٌّ بخوفهم أو مشتاق لرضائهم أو شاعر بوجودهم . انني وحدي من صنع نفسي

ولكن . . .

ما لتلك الخواطر تزحم رأسي فتضني نفسي في يوم عرسي

أيكون هذا شعوراً ؟ ما علينا . لأمض في بطن دنياي أحادثها فليس ليوم وقت ناجاة

أوصلتهُ هذه التأملات الى خارج المدينة فما ان أفاق منها حتى وجد نفسه وسط حقول مغشى عليها من فرط البرد وقد أقفرت شعابها من كل دابٍ وخلت أجواؤها من كل طائر. التي بصره على تلك المروج المذعورة فبدت له في اطار الصباح الرمادي كبعض أحلام النائم التي تنتابه في مطلع الفجر . لم يكن في الصورة المنثورة امامه مشهد واحد حقيقي

واستهوته هذه الفتنة الجديدة ففي وسط الحقول متخيلاً انهُ صاحب هذا الفضاء بأسره. وراقته فكرة ان يكون غنيًّا غنيَّ طائلاً فابتسم ثم فهقه في صوت مكتوم . ان يكون صاحب ملايين . . . انهُ يستطيع حينئذٍ ان يكره البشر بكل ما أوتي من قوة وان يظهر هذه الكراهية بشتى ما يخول له من وسائل . يستطيع مثلاً ان يشتري قانون الحكام وان يبتاع ذمم اولي الأمر . فاذا ما أمن جانب الدولة وازاح عن عاتقه خطر السجن سهل عليهِ بعدئذٍ أن ينال الناس في أعزّ ما يقدسونهُ وأن يسخر علناً بكل ما يضعونهُ موضع الاحترام وان يسقه كل رأي يربط به القوم أمانيهم . لهُ حينئذٍ أن يحقر ويلطخ كل معانيهم كالوطن . والحرية . والساواة . والعدالة . بل والدين نفسه — دون ان يخشى عقاباً أو يأبه بآراء الرعاع

ويصبح في مقدوره ان يتفنن في هذه الاساليب وان يجعل منها نظماً قائمة على مؤسسات ثابتة تكون عنوانهـ مسبة دائمة في جبين الناس وهم لا يدرون . فهو يستطيع عن طريق ملايينه ان يجعل من مبائس اصطلاته زعيم حزب سياسي لا يلبث ان يشتري له الاعوان ، ويجمع من حوله الانصار ، ثم يحمي اصابعه بالجواهر ويرشق في سترته الازهار ، ويطلقه من بعد ذلك يخطب في قطعان الناس ، فما ان يهل عليهم ببلاهته المجسدة وغبائه البدع حتى يضجون بالهتاف والتصفيق وينتهون بحمله على الاعناق . وتصبح لغة الاصطبلات التي

تحدثهم بها لغة السياسة المثلى وعنوان البراعة ورمز البلاغة

فاذا استطاع بعد ذلك ان يوصله الى كرسي الحكم . . . ما أعظمها سخرية ! وكم تكون الطعنة نجلاء والسبة فاحشة حين يخلعه بعد ذلك من منصبه ويعيده الى وظيفته الاولى فيعلم قطيع الخراف الآدمية ان حاكمهم الذي أشادوا بعبقريته لم يكن سوى سائس في اصطبل

ألهته هذه السوانح الشيطانية حيناً من الزمن فما ان أفاق منها حتى وجد نفسه يرتعش من فرط البرد . فقد كانت برودة الجوّ تنفذ في الجسم كإبر من جليد والريح تهب مثلوجة كأنها أنفاس الأبالسة . وكان صاحبنا قد غادر حجرته برأس عار وعلى منكبيه رداء خفيف ما لبث أن تأثر مع الجوّ فاستضاف برودته

نظر الى يديه المقرورتين برهة وهو يبتسم . كانتا ناصعتي البياض لا يشوبهما سوى صفرة خفيفة في سبابة اليد اليمنى من أثر النيكوتين . وراقه ما لاحظه من نعومتهما ورقة أديمهما حتى كأنهما أكف العذارى الخود لا يفارقن مخادعهن ولا تلمس اصابعهن غير المخمل والحرير وقد بلغ من فرط رقتهما ان كادت البشرة تشف عما تحتها من عظام وشرايين لشدّ ما أعجبه هذا! ان يده ليست يد رجل...

غير ان البرد القاسي عاد يمكر عليه سفو راحته . فعمد الى حائط متهدم ليحتمي في جوفه ولكنه وجد ان القرّ قد سبقه اليه . وفجأة شعر بأن نفسه قد تخلخلت وباتت بغير أساس . وبأن صدره أصبح فارغاً خرباً موحشاً . وكان كلما لفحهُ الريح بأكفه الميتة ازداد شعوره بوحدته وبقلة حيلته

أجل ما هي الريح تصرخ في وجهه بأنه وحيدٌ وحيد . لا صاحب له ولا قرين . يقيناً انه ولد من ابوين وكان لهذين الأبوين أقارب وأنساء وأصدقاء فأين ذهب هؤلاء جميعاً اذابت ثم أصبح فاذا به في عالم لا يعرف من مخلوقاته أحداً ألم يكن يعيب أمر هذه الوحدة وهو قابع في حجرته ولكنه وسط هذا البرد القاسي شعر بحاجته الى الدفء فتاقت نفسه الى الجموع يستتر ويكمن

اذن فما أتعس الانسان ! انه كائن هش يصطنع مشاعره من درجة الحرارة ومن لون المرئيات ومن طعام كثير الفلفل . فهو يحب ويكره ويحسد ويثور ، ويغضب وينتقم ، ويرضى ويفرح ، لأنه لمح فتاة مرة ملتاثة في عرض الطريق ، او رأى القميص الداخلي لامرأة سافرة أمامه متدلياً من تحت ردائها الخارجي ، أو لأنه سمع بائعاً ينادي على بضاعته بنغمة شاذة . أتكون مشاعر الآدميين من التفاهة والرقة بحيث تستثيرها هذه المثيرات الحسية ! وهل منع الانسان حقاً من أن يشعر شعوراً أصيلاً ثابتاً لا يحركه سوى الأمر الخطير والمعنى الجسيم !

اذن ما بالهُ قد ترك شيطنته وأنكر اعتزازه بوحدته وراح يسعى وراء الجموع متمنياً وجود القرناء لمجرد احساسه بريح باردة تلفح وجهه !

ومع ذلك فان هذه العلل العقلية جميعها لم تنجح في تحويل شعوره الى الوجهة التي اراد. وما لبث ان أحسَّ بأن حاجته الى الدفء قد تدرجت الى نوع من الحنين الملح الى شيء مجهول لا يستطيع ادراكه . شعر بأنه يريد ان يحتضن الى صدره شيئاً ما وان يطبق عليه بذراعيه فيعتصره . كأن في أحشائه قطباً مغناطيسيًّا يتلهف الى الاكتمال بقطب معاكس او كأنما هو جائع الى شيء فيريد ان ينطلق في بسيط الارض باحثاً عن الشبع

عجباً ! أيكون « ابليس الصغير » متعطشاً الى حب امرأة !

انهُ يذكر ان هذا الشعور بالجوع العاطفي كثيراً ما انتابهُ وهو لا يزال طالباً في الجامعة تلك الأبنية المهيبة الانيقة التي لا تحمل من معاني اسمها سوى انها مكان معدٌّ لاجتماع نفر متفرق في صعيد واحد . كان يخرج منفرداً ليجوس في الحدائق المحيطة بها فيخطر في طرقاتها المورقة وتقع عيناه على النبات الأخضر وعلى الماء الراكد الساجين ، ويطرق اذنيه صوت الدوح تساير جاراتها ، وشدو الطيور تسمع أهل الأرض أنغام السماء . وحين تتعب قدماه وتسأم نفسهُ كان يأوي الى مقعد مهجور في ركن ظليل فيجلس ويطرق . وما من مرة طال به المقام في هذه العزلة الصامتة الاَّ وتنبه من أحلامه الحزينة على احساسه بدفء الساخن يتساقط على كفيه

كان يبكي من غير وعي . إلاَّ أن وعيهُ الداخلي كان يدأب على إشعاره في كل بادرة تسنح لهُ بأنهُ وحيد وانهُ محروم . كان يحسُّ بأن نفسه تكاد تتشقق من شدة الجفاف وان فؤاده يصرخ مطالباً بالعطف والحنان اللذين لا يستقيم العيش بدونهما

ويذكر أن في ذلك الوقت كان اذا ذهب الى مسرح أو سينما لم يكن يعنى بجل ما يعرض عليهِ من مشاهد مصوّرة . غير أن ثمة نوعاً واحداً من المشاهد لم يفشل مرة في استثارته وتحريك دموعه . وكان يكفيه أن يرى أمًّا تمرُّ بيدها على رأس ابنها المحموم ، أو أختاً تستقبل في أحضانها أخيها العائد من سفر طويل ، أو فتاة تحمي عشيقها بجسمها لتدفع عنهُ خطراً ما . حتى يشعر بأن قلبهُ يعتصر عصراً

بل ان كثيراً من مشاهد الحياة العادية كطفل يقبل معتذراً بذنبهِ لتحية صاحبه ، أو زوج يساعد زوجه على الصعود في الترام ، أو بائع جرائد يصلح من هندام زميل لهُ ، أو عابر يأخذ بيد أعمى ليوصلهُ الى الجانب الآخر من الطريق ، أو بائع نقير يجود بشيء من بضاعته على شحاذ ، أو أم ترقب طفلها وهو يلعب وسط الروج . . . كان أيٌّ واحد من

هذه المشاهد كفيلاً بأن يغمر عينيه بالدمع ويجعل شفتيه ترتجفان . ثم لا يلبث أن يعض على تواجده ويمضي في طريقه كيفما وقد عصفت به مشاعره المضطربة

وكان يخيل اليه ألا نجاة له بغير الحب . فالحب على حسب ما كان يرى هو النظر والصدر لما يحتاج اليه الفتى من حنان عاطفي

وأخيراً أحبّ . ثم قبع في وكره ينتظر الثمار . فكان بعد ذلك ما لا يود أن تمر مجرد ذكراه بباله . واذا به في ذات يوم يهجم على حبيبه فيخنقه ثم يحلم تمثال من أحب

وقال : لا كن هذا الفتى الصلب العود الصفيح القلب الذي يأنف من أن يبذل أنبل مشاعره في الهوس والسخافات . وكان يحلو له أن يردد قول الاعرابي « ما بال الرجل منكم يموت في هوى امرأة ! انما ذلك لضعف فيكم يا بني عذرة »

وأحاط نفسه بالسياج فأصبح في عصمة أنونة منيعة وبدأ يشعر بجبروت الآلهة

فما باله اليوم اذن يعود الى وساوس ايفاع الشبان !

ازداد شعوره بالبرد فغادر مكانه وانثنى صوب المدينة . وكان كلما خطا خطوة آلمته قدماه وكأنما يسير على قتاد مرهف . وبعد ان ساروا شوطاً مضنياً وقف تحت خيلة وارفة وهو مقرور . ووقع بصره على قرية بعيدة يتصاعد من أكواخها الدخان فاشتاق النار . وكانت القرية مضمومة على منازل متقاربة تتوسطها قبة بيضاء لجامع أو لمدفن أحد الأولياء . ولم يكن بجوار القبة مئذنة . وفي أنحاء متفرقة من هذا المشهد قامت أشجار الجميز الفرعوني العجوز فبدت كنحاتين مكفوفين يدبون على عصيّ . وظهرت في الافق البعيد قلعة القاهرة الشامخة تشرف على المدينة فتدمغ كل منظر فيها بطابعها القاهري . وكان الضباب يغلف هذا المشهد بأسره فيبدو كصورة خيالية من تلك الصور التي تصنع خصيصاً للسائحين الاجانب فيبتاعونها كتذكار ممثل للطابع القاهري

غادر مكمنه من جديد واستأنف السير حثيثاً حتى وصل الى المدينة . وكانت الطرقات لا تزال مقفرة من السابلة والعربات تجري مذعورة من حين وآخر كأنما تفر من عدو مطارد وكان السكون غنياً في كل مكان حتى خيل اليه أنه يهبط مدينة قد أكتسحها الغزاة فسلبوا متاجرها وفتكوا بأهلها

شاهد مطعماً في طريقه . وشعر بأنه جائع فدخله وبدأ يأكل ما طاب من طعام . غير انه لم يتناول سوى لقيمات حتى أحسّ بأنه قد فقد شهيته تماماً فأمسك عن الأكل وأشعل لفافة أخذ يشمّ دخانها بنهم

وفجأة وقعت عيناه على فتاة في الجانب الآخر من الطريق تقف أمام نافذة مكتبة . فتاة

متوسطة القامة هيفاء القدّ ترتدي السواد ولها شعر في لون الذهب . لم تكن هذه اول فتاة صادفها في يومه . فقد مرت أمامهُ كثيرات غيرها وآهنَّ يهرولنَ مطرقات كأنما قد مات أزواجهنَّ وأخواتهنَّ ثم لا يبتئنَ ان يتلاشينَ في الضباب. ومع ذلك فقد وجد نفسه — ولسبب مجهول — يغادر مائدته ويدفع حسابه ثم يخرج الى الطريق . لعل ما أثار اهتمامه بهذه الفتاة هو انها لم تكن مذعورة وجلى كسائر الخلق في هذا الحرب بل وقفت منتصبة في مهابة وهدوء تتصفح في امعان وتركيز الكتب المعروضة في واجهة المكتبة

وقف برهة يتأملها من جانب الطريق الآخر . . وخيّل اليه انها شاعرة بوجوده اذ لم تلبث حيناً حتى حانت منها التفاتة لم تستغرق ثوانٍ خاطفة . وهبط على الفتى تردد وخشية فهمّ بالرجوع الى الطعم ولكنهُ وجد الفتاة تدخل المكتبة فعبر الطريق للتوّ ولحق بها . ولما دخل المكتبة جعل يحدق فيها عن بعد فرأى شعرها زرقاوين . وشفتين ورديتين . وبشرة في لون الحنطة . وفيما عدا ذلك كان وجهها مغلقاً ساكناً لا تبين قسماته عن عاطفة او معنى . ثم تكلمت فسمع صوتاً كترجيع الريح وسط الغابات المنعزلة في قلل الجبال . كانت تسأل عن ديوان لشاعر مات في شرخ شبابه فعرف الناس بعد موته انه لم يكن بشراً مثلهم بل روحاً علوية هبطت عليهم من السماء . وبدا على الكتبي المتكئ في دثاره انه لم يسمع باسم هذا الشاعر من قبل . فهزَّ رأسه واعتذر عن عدم وجود هذا الكتاب لديه

غير ان الفتاة لزمت مكانها فلم تتحرك وصمتت برهة ثم قالت في امارة وسطرة بانها مستوثقة من وجود هذا الكتاب الذي تطلبه لديه وتضايق الكتبي من لهجة الفتاة فأجاب في حدة خفيفة بانه أعرف الناس ببضاعته وها هي الكتب معروضة أمامها فلتبحث فيها كما تشاء

وكان هو في هذه الاثناء قد اقترب حتى أصبح بواجهة الفتاة . فلما سمعها تعبر عن استيثاقها من وجود الكتاب امتلأ قلبه دهشة . فقد كان هو الآخر يعرف ان الكتاب موجود كما كان يعرف موضعه من المكتبة . ولكن هذا شيء آخر . فهو يعرف مواضع جميع الكتب في معظم مكتبات المدينة لأنه يعيش معظم حياته في حناياها . أما الفتاة فكيف تأتى لها هذه المعرفة وهو لم يشاهدها في سوق الكتب من قبل ثم انها لم تر الكتاب ولم تعرف موضعه !

وفي حركة هادئة رفع الفتى يده فاستخرج الديوان من وسط الكتب وقدّمه اليها بغير لفظ . ولكنها لم تتناوله منه الا بعد ان ظلت يده مبسوطة به بعض الوقت . فلما أصبح في كفها ألقت عليه نظرة ثم رفعت للفتى وجهها الصامت وتحركت شفتاها بلفظ فرد

— اشكرك

أما هو فلم يجب . بل ظل يحدجها بعينين مذهوشتين كأنما يشاهد رؤيا من عالم آخر

ومع ذلك فلم يبدُ على الفتاة انها تضيق بنظراته . ولكنها ايضاً لم تبتسم له بل قالت بعد برهة :

— لِمَ تحملق فيّ؟

ولكن الفتى ظلّ على صمته حيناً طويلاً وأخيراً تكلم من غير ان يحوّل بصره عنها :

— آه لو أن شعرك أسود . . .

— ان ردائي أسود

وبعد برهة صمت استطردت قائلة :

— أرى انك تهتم بالألوان

— بل إنما توحي به من معانٍ . ان السواد هو العنصر الذي أعيش فيه

— السواد . . .

— أكان من الممكن ان تكوني زنجية ؟

— ان عينيّ زرقاوان

— انهما جميلتان

ولكنهما لا ترضيانك ؟

— لا أدري

ثم قال مقطباً :

— مَن أنتِ !

— أنا . . .

وصمتت برهة ثم أجابت

— انني أحبُّ قراءة شعر الملائكة

* * *

خرج معها الى الطريق وسار بجوارها وهو مقطب . وبعد برهة صمتها تقول له :

— لِمَ تتبعني ؟

التفتت اليها وقد ازداد وجهه عبوساً ثم خاطبها في شيء من الحدة

— لست أتبعك بل أسير الى جوارك . ان كلينا مدفوع بيد واحدة وهو ما يسايقني

فبدا على شفتي الفتاة طيف ابتسامة غامضة :

— حقّاً !

ووجد الفتى نفسه يصرخ لغير سبب :

— أجل وكأنني موشكٌ على الاستغاثة بالشرطي لينعك مني

— ولكنك تركت مكانك ولحقت بي!

— اذن فقد رأيتني حين كنت في المطعم!

لم تجب الفتاة فساد الصمت بينهما. وعلى حين غرة توقف الفتى عن السير وقبض على ذراع الفتاة بأصابع عصبية وأخذ يحدجها بنظر من نار. اما هي فلم يبدُ عليها أثر ما لهذه المفاجأة بل نظرت اليه في هدوء وهو يقول:

— أكنت تتوقعين رؤيتي اليوم؟ اعترفي

ولكنها رفعت عينيها الى السماء ولوّحت بيدها في الفضاء:

— اليوم ضباب، انظر، ما أشدّ الضفادعَ حولنا

واستأنفا السير فعاد الى اطراقه وهو كظيم. أدرك لتوّه ان هذه الفتاة الغامضة تقبض عليه بيد من حديد وانها تستطيع معه ما تشاء

لقد هبطت عليه من الضباب. ومع ذلك شعرت بأنها ليست من عنصره، فهو لا يستطيع ان يسيطر عليها كما يسيطر على مخلوقات مملكة الظلمات التي يعيش فيها. فهو وسط الابالسة حاكم وأمير. وفي حنايا الجحور المستورة يتأتى له ان يأمر فلا يردّ له أمر. ثم انه يقدر على التحكم في معظم النفوس البشرية ان استطاع ان يدلف اليها من المسارب التي تلائمه مسارب — الدود الأملس والحيات السود حيث لا حكم للقوة السوقية ولا للعنف القبيح بل يطلق المجال للحيلة الملتوية والعقل النافذ والايهام البارع. ولكنهُ لا يجد مع هذه الفتاة ثغرة ينساب اليها منها آه لو كانت سوداء الشعر ولم تكن عيناها زرقاوين...

ومع ذلك فقد أحسَّ بلذة غريبة في سيطرتها عليه وعبوديته لها. وتأمل هذا الشعور الجديد الذي يملأ صدره فأحبه. لو تستطاع دوامه بعض الحين ليتمكن من وضعه تحت مجهره فيجري عليه تجاربه. وحدّث نفسه بأن لا خطر عليه من هذه العاطفة النامية ما دام هو لا يوحد ما بينها وبين نفسه او يلقي بكيانه في خضمها. فهو على يقين من قدرته على ابقاء رأسه فوق سطح الماء. وما دام الأمر كذلك فهو يستطيع ان يقتل نفسه متى شاء. فهذه القدرة على تجنيب نفسه من كل قيد وكفالة الحرية التامة لها في الفكر والعمل هي أثمن ما استطاع انتزاعه من كبد هذه الدنيا البغيضة. وهو في سبيل محافظته على هذه الامارة الروحية قد قطع صلاته بكل الناس وتنصل عن قلبه قيد كل عقيدة ودين

حينئذٍ أحسَّ بأنهُ يملك الكون في كفيه وبأنه في عصمته العنوية هذه أقوى بكثير من كل طاغية او امبراطور. اذ لا شيء على الأرض يستطيع ان يعتدي على شيء من آفاقه الممتدة الى ما وراء النجوم. ولا شعب يهدده بالقيام في وجهه ولا ثورة تقدر ان تسقطه

عن عرشه . في حين ان الحكام عبيد لارادة المحكومين وعبيد لنفوسهم المشبعة بأغراض عمياء تقودهم من أنوفهم الى هنا وهناك

التفت الى الفتاة وقال :

— أترضين بصداقتي ؟

— لِمَ ؟

— لانني أريد ان أحبك

أطلقت الفتاة ضحكة من مقطع واحد وقالت :

— أنت فتى طيب القلب

أثارت هذه الاجابة ثورته فصاح :

— لماذا تراوغين ؟

— لست أراوغ

— بل أنت كسائر النساء . هل المرأة لا تستطيع الاّ ان تكون قطرة من زئبق تتخذ كل شكل ولا شكل لها . وتسعى الى كل غرض من غير ان يكون لها غرض ! لماذا لاتكونين قطعة من الحديد الصلب ؟

— ماذا تريد

— ان تحبني

— أنت لا تستطيع الحب

— انني اذا أردت الحب فلا شيء في العالم يمنع من قدرتي عليه

— ولكن الحب ليس ارادة بل هو على العكس من ذلك تماماً . فهل أنت مستعد ؟

نظر الفتى الى وجهها الباهت العذب فأخذ بالحنان يتفجر من صدره وودّ لو حوى هذا الوجه في يديه وغمره بالقبل

— أجل

صمتت الفتاة برهة طويلة وهي سائرة الى جواره . ثم التفتت اليه مبتسمة وقالت :

— هل أنت مستعد لأن تنجب مني أطفالاً ؟

توقف الفتى عن السير فجأة وصرخ مذعوراً

— لا لا . إلاّ هذا

ضحكت الفتاة وضربت بكفها على كفه قائلة :

— أرأيت ...

— لا . انني لا أحب الحياة فكيف تطلبين مني ان أعاونها على الاستمرار والبقاء . . .

— ولكن أنا هي الحياة أيها الفتى الطيب . فان رغبت فيّ فعليك ان تحب الحياة أولاً

واصل الفتى سيره الى جوارها وهو مغيظ . فها هي الفتاة تكرر دعوتهُ « بالفتى الطيب القلب » — هذا التعبير البغيض الذي خشي منذ لحظات ان يكون المجتمع قد أطلقهُ عليهِ . وبعد برهة رفع رأسهُ وقال :

— هل تتعهدين بأن تبقي الى جواري دائماً فاستطيع أن أضغط على لحم ذراعك كلما أردت ؟

— انني بجوارك ما دمت تؤمن بأن الحب ليس ارادة وبأن الحياة طاعة وخضوع . ثم . . .

— ثم ماذا ؟

— لا بدَّ ان تنجب مني أطفالاً

وجم الفتى . ولكن وجومهُ لم يستغرق سوى برهة قصيرة انطلق بعدها يقول :

— سأفعل كل ما تطلبين . ان عبوديتك تلذّ لي وأشعر بأن أحب الأشياء اليّ هو ان أطيع أمراً لك . انني اعبدك . أتفهمين ؟

وأمسك بكفها يقبلها

شعر بسعادة غامرة لم تعرفها حياتهُ من قبل . وودّ لو اختلى بالفتاة ليبكي بين يديها بدمع غزير ثم يحدثها عن كل ماضيهِ . أراد ان يبثها لواعجهُ وان يطلعها على أشجانه التي أضنتهِ ثم يسألها الصفح عما سلف ويطلب منها الارشاد والعون على المستقبل

لقد طلبت منهُ ان يخضع للحياة وان يتنازل عن إرادته . آه لو درت بأنهُ الآن مستعد لان يكون أسيراً لها وعبداً لأهوائها . . . أن يكون خادمها وكلبها وموطىء قدميها . . . فان مرت بأناملها الناعمة بعد ذلك على جبهته ، او نادته باسمه او ضحكت في وجهه فقد نال كل شيء أجل . ان عبوديته لها أجل من حرية نفسه اضعافاً . كل شيء يهون ويتضاءل ما دام جسدها الحار الى جواره

***

أمضى مع الفتاة بقية النهار في حان فلما أن جنَّ الليل وجد نفسه يسير معها في دروب مظلمة . وكان طوال هذه الفترة يحدب عليها ويدللها كما لو انها طفل صغير ناعم . وتمنى لو استطاع ان يحمل عنها عبء التنفس والكلام والحركة حتى يجنب مخلوقته الثمينة كل عناء او طيف عناء . فكان يحضر اليها كل ما تطلب ويعدّ لها ما تشاء من مأكل ومشرب . وصارت أعظم أمنية له ان يراها راضية قانعة في ركنها الدافىء حيث يغمرها بنظراته الملهوفة . وهو

في كل هذا يدأب على تلمسها والضغط على يدها حتى يطمئن الى بقائها بجواره

ولأول مرة في حياته أدرك معاني التقديس والعبادة والصلاة

كان الجوُّ لا يزال فاتك البرودة شديد العتمة والريح تصفر في الطرقات كذئاب جائعة. ولقد خيّل اليه أول أن خرج من الخان ان هذه العناصر الصديقة تحتب عليه بحره إياها وانشقاقهُ عليها ولكنهُ أشاح بوجهه وهزّ كتفيه. ما له الآن ولها؟

ولكن طال سيره مع الفتاة في جوف الليل فكان لا يرى وجهها كما امتنع عليه الضغط على لحم ذراعها الحار الذي أصبح مستوراً في معطف كثيف. وكأنما البرد واحتجاب الفتاة عنهُ قد تآمرا على النفوذ الى عاطفته الوليدة فما لبث أن خلّفاها في إطار من الضباب. ولم يعد الفتى يشعر بالأثر البالغ الذي كان لفتاته عليه منذ لحظات بل أصبح ينصت في وجل الى زمجرة الريح الغاضبة فبدت له كوعيد طاغية مستبد يهدده بالويل والثبور

أحاط الفتى خصر فتاته بذراعه وضغط عليه متمتماً

— لا. لن يأخذوك مني سأقاومهم الى النهاية

ولكن الريح اشتدت وأخذت تلفح وجههُ بسنان كالإبر. فأدرك الفتى أن صحبتهُ القديمة قد بدأت العمل. وسرعان ما شاهد الضباب يهبط من جديد على المدينة ليلف معالمها ويحيل مشاهدها الى أحلام مخيفة كخرافات الاساطير

سحب الفتى ذراعهُ الذي كان يلفُّ به صاحبته وابتسم في حسرة

— لا بأس أيها الرفاق. اتركوها لي حقبة وانا أعاهدكم بأنني لن أنجب منها أطفالاً

أما الريح فلم تهدأ. وأخذ الضباب يثقل ويتكاثف. حتى هذه الترضية لم تخفف من حدة عشيرته الباغية

— لماذا أنتم غضابى؟ اتركوني برهة وتقولوا بأنني سأنجح في ضم من تدعي انها الحياة الى زمرتكم يا أهل الظلام

التفتت اليه الفتاة تسأله:

— فيما تفكر

لم يجب الفتى أول الأمر. ثم انطلق يضحك ضحكاً مكتوماً لم تنفرج عنه شفتاه وقال

— أفكر في رجل لهُ ذنب وفي رأسه قرنان

نظرت اليه الفتاة في لهفة فخيّل اليه انه قد نجح في إخافتها. ولأول مرة في هذا اليوم أحسَّ يدها تمسك بذراعه وتضغط عليها. لقد كان هو الذي بدأها دائماً بالمحاصرة والعناق فاذا دفع الفتاة الساعة لأن تكون البادئة! أتراها قاربت منزلها فهي تحييه من قبل أن

تفارقه ؟ أم لعلها شعرت بما يدور في رأسه من أفكار فهي تحاول أن تشد عضده ليقوى على مكافحة غرمائه ؟

انها ان همت الآن بفراقه فعليه ان يتمالك نفسه فلا يظهر حسرة أو حزناً بل يسألها في عدم مبالاة عن موعد لقائهما المقبل ثم يصافحها وينطلق

وسمع الريح تهمس في أذنيه وتقول :

— بل فلتعطها نقوداً فهذا أوقع

* * *

كانا يسيران على افريز ضيق والفتاة تتمتم بلحن خافت حزين . وصادفهما حائط أبيض ممدود في جوف الليل كصراط يوم القيامة . وهمّ الفتى بسحب فتاته الى ناحية الحائط الخارجية ولكنهُ وجدها تزم ناحيته الأخرى فخطا ليلحق بها . ثم خطر لهُ أن لا يتبعها . لم يتبعها ؟ فليمض كل منهما من أحد جانبي الحائط الذي ان فصلهما برهة فسوف يلتقيان في نهايته . ولكنهُ لم يكد يخطو خطوة في الجانب الآخر حتى هبط عليه شعور غامض قابض فعزم على أن يعود فيلحق بصاحبته . ولكنهُ لم يفعل . بل واصل سيره فما أن بلغ منتصف الحائط حتى سمع همساً يملأ مسامعه :

— انك لم تتبعها . ها أنت حرٌّ من جديد فهنيئاً لك بسيادتك استعادة أنت حرٌّ . حر . حر . . .

ووجد نفسه يقهقه قهقهة شيطانية ويقول :

— أحل . لم تعد الفتاة معبودتي والهي . ما هي إلاّ حشرة مسكينة سأجري عليها تجاربي بينما أوهمها بأني اشغرف بحبها . ها ! ها ! هاي !

وفجأة شعر بأن قلبه يهبط ويهبط الى غير قرار . وأحسَّ بالدمع يسيل ساخناً من عينيه والغصة تملأ حلقه فصرخ قائلاً :

— رحماك أيتها النفس العاتية ! اتركيني أعيش . . .

وأسرع الى نهاية الحائط ومال بعينيه باحثاً عن الفتاة فلم يجدها . . .

لم يحاول البحث عنها . بل سار في طريقه مطرقاً وهو موقن بأنه قد فقدها الى الأبد

وفي هذا الحين دوّى الفضاء بصوت الرعد القاصف ووميض البرق في عرض السماء . ثم بدأ المطر ينهمر

وتلاشى شبح الفتى في جوف الظلمات من جديد